مفهوم التأويل في النقد الأدبي المعاصر

أ/ أحمد مداس
كلية الآداب واللغات
جامعة بسكرة

الملخّــص:

يتراءى التأويل عاملا مشتركا بين المدارس النقدية المعاصرة، ويتكئ على المنطلقات الفلسفية والعلمية لكل واحدة منها. وعلى هذا الأساس؛ يقدم الباحثون آليات تتفق مع رؤاهم وتوجهاتهم النقدية، دون الخروج على جملة الوسائط الواردة في هذا المقال.

إن الأكيد هو اعتماد التأويل شكلا من الفهم والاستيعاب، يتلوه الشرح والتفسير بيانا لهما، ليتراوح بين جدلية قصد المؤلف وقصد النص، وسيطا أوليا، يعقبه اهتمامات المؤول ولاوعي المبدع، وينتهي بالنص مثيرا والتأويل استجابة بالتقابل ليكون الثاني منهما صورة أخرى للأول بكثير من الوهم والاتساق.

Résumé:

L'Interprétation se présente comme facteur commun entre les écoles critiques contemporaines, et se base sur leurs supports philosophiques et scientifiques. Et c'est ainsi que les travaux sur le champ critique s'appuyent sur les mécanismes et les paramaitres mentionnés dans cet article.

Certe, l'interprétation est une forme de compréhenssion argumentée et démontrée par l'éxplication .

De ce fait, elle est, en fonction des paramaitres qui suivent, la matière inclue dans l'intention de l'auteur ou celle du texte, les préocupations de l'interprète et l'inconscience de l'auteur et en fin le texte et l'interprétation en paradoxe, pour former une autre image simulacre, identique et cohérente.

وسائط التأويل :

يقوم التأويل عند المعاصرين على جملة من الوسائط، يتعين معها مفهومه بما لا ينفي الخلاف بينهم كما اختلف القدامى؛ فتجاذبه المقام (situation) والنص، واهتمامات المؤول ولا وعي المبدع، بل وحتى تفاعل الأثر النصي والمنهج، ليشكل التأويل والمؤول قطبا نظيرا لقطب النص والمؤلف.

1 - جدلية القصد: المقام/النص أو النص/المقام:

إن جدل الرسالة (Message) والوضع اللغوي (code) قائم على أساس ثنائية الجمعي والفردي؛ لأن الرسالة قصدية يتم توجيهها من قبل شخص وهو يعني بها شيئا معينا. والوضع لا موجه له ولا مرسل (destinateur)، ولا يهدف إلى قصد، فهو ملزم للجماعة الناطقة به[1]، والكل يسيره النظام العام(Système) الذي تتدرج تحته أنظمة خاصة أساسها الفعل أو الأداء الفردي (Performance). وعليه؛ يجزم بول ريكور (Paul Ricœur) أن الكلمة لوحدها داخل أي نظام لا معنى لها في ذاتها، وإنما تستمد معناها من الوحدات أو الكلمات المجاورة لها في الموقف الذي ترد فيه[2] مصرا على الموقف الذي يصرف المعاني إليه. وهو إصرار فيه توجيه مهم؛ ذلك أن المعنى الكلي يعين فيه، ولا يعين في داخل النص. ويتأسس الخلاف هنا على مقام يُصنَع فيه النص، ونص يصنع مقامه بنفسه، ويبدو أنهما دعامتا التأويل؛ لأن حمل المدلول بوصفه قيمه اختلافيه (Valeur variable) في النظام المعجمي[3] (Système lexical) على مراد مقصود اعتمادا على المقام يحيل على الترجيح من حيث الاختيار القائم على الدليل أو الشاهد. وقد يكون على خلاف ذلك عند اعتماد الدال بإيحاءاته وإيماءاته (connotation)، فيقول النص عندئذ أكثر مما يقوله احبه. لقد صار الأمر على هذا الأساس إلى معنى الناطق (énonciateur) ومعنى النطق تلفظا كان (énonciation) أو ملفوظا (énoncé) وما يتعلق بهما من مسائل إعادة بناء السياق الأصلي، و تركه، والجمع بينهما. فأما المسألة الأولى، فإن معنى الناطق مقصود لذاته، ومعنى النطق مقصود لغيره بوصفه فائضا عن المعنى، والكل لا يتعدى الكتابة بوصفها انفعالا وجدلا بين الواقـع والخيـال ضـرورة[4]، مما يجعل العلامة تشع أفكارًا ومعاني[5] تعمَّد

المخاطب اختيارها في تركيب يكون دليلا على كل معنى ظاهر أو خفي. بل هي لا تقول شيئا إلا إذا كانت هناك استجابة من جانب شخص يتلقى ما تريد أن تقوله، بما يبيح تعدد التفاسير وفق شرط أساسي للفهم هو الشك(6). ومنه، فكل علامة قابلة للظهور في استجابة واحدة بناءً على سياق معطى، كما يمكنها أن تكون قابلة للظهور في واحدة من الاستجابات الممكنة، وهي استجابات يمكن أن تتوفر لدى مؤول واحد أو عدة مؤولين، على أن الاستجابة الواحدة عند الواحد منهم هي إمكانية واحدة في مقابل عدد من الاستجابات عند الكل المحتمل. ومهما كانت الكتابة بوصفها موضوعا للتأويل(7) فإنها مرتبطة بمعنى النطق، بما يتيح الانتقال من لسانيات الوضع إلى لسانيات الرسالة(8) فيشير **(معنى النطق إلى معنى الناطق)**(9) ثم يتعداه إلى غيره. إلا أن ريكور يحجب تعدد المعاني ويكتفي بالمعنى الواحد الذي يفرضه المقام، فيتقلص **(الاستقطاب في أقل عدد ممكن من التأويلات)**(10). وهو بذلك لا ينفي كينونة التعدد رغم الالتزام بالمقام وحدوده؛ لأن للمؤول اهتماماته التي يتقيد بها، وهو يعمل التأويل في خطاب يقوم على علامات لغوية تبيح تأويلات تخضع لمقام يعلوها، أو تصنعه بذاتها. وفي الحالتين معا يجب **(التعرف على قصد الكاتب...في موقف الخطاب الأصيل)**(11) أو على الأقل توقعه. إن معنى الناطق يستلزم قصدية منه، يضمنها التحليل كما يضمن ما تؤديه من معنى. ومعنى النطق قراءة في بنية الخطاب، تنشئ الاحتمالات ثم ترجّح بعضها اختيارا وتأوّلا، وتهمش الباقي. إن القصدية هنا**(ليست قصدية الذات المتكلمة، وإنما هي قصدية الصور النصية)**(12) وما تثيره في ذات المؤول من تخييل وتوقع، يرتبط**(بالبحث عن سياق ثقافي للإرسالية الأصلية)**(13). غير أن الإشكال المنهجي يكمن في قيام **(جدلية قصد القارئ وقصدية النص)**(14)في مقابل**(قصدية المؤلف وقصدية النص)**(15)، لقيام المعالجة التفسيرية على أساس الذاتية (Subjectivité)، إذ **(عند المؤلف، يكون العمل الأدبي استجابة لتجربة حياته أما عند القارئ، فإن التفسير هو الاستجابة لتجربة قراءته)**(16). والحاصل أن يتفق قصد المبدع أو يختلف عن قصد النص، وفهم القارئ/المؤول قد يتفق مع قصد المبدع وقصد النص، وقد يختلف عن قصدهما، وقد يوافق قصد أحدهما ويخالف الآخر. وكلها احتمالات ممكنة نظريا. وللحد من تعدد المدلولات وتضييق اتساعها **(يُعمَد إلى إعادة**

المعنى السابق للنص بشروطه الخاصة)[17] تعيينا للتأويل الصحيح **(الذي يروم الإمساك بالمقاصد الأصلية)**[18]. وهو ما يحصل بإعادة بناء السياق الأصلي على نحو يمكن فيه **(فهم كلمات النص على نحو دقيق)**[19] لأن النص أُبدع نتيجةً لقصدية إنسانية تستوجب إعادة بنائها **(بأية بيّنة تصل إلى أيدينا)**[20]، ليتم في ضوئها فهم العلامات اللغوية، مما حوّل البحث في البيّنة المحددة لمعالم السياق/المقام بحثا مستقلا بذاته قرينة كانت تلك البينة أو شاهدا يصرف مدلولات الدوال إلى مركزه بوصفه معنى عاما مقصودا، ويرتبط فهم الموقف والملفوظ **(بالنزعة البراغماتية النفعية)**[21] مع احترام الخلفية الثقافية واللسانية للخطاب[22] . نظريا يحقق هذا التوجه التمركز حول المعنى، وهو من جهة الإمكانية قابل للكينونة غير أن الأمر لا يخلو من مشاكل:

الأول:(بينما تبقى كلمات النص المكتوبة في الماضي...ثابتة، لا يعود السياق الذي أنتج تلك الكلمات موجودا)[23]. وما يحصل منه لا يتعدى المشابهة التي قد لا تتم بالشكل المناسب، فلا يحصل المراد.

الثاني:(إن مهمة علم التفسير...فهم النصوص...وأن المشكلة التأويلية لم تثرها الكلمات وحدها، بل إن التلفظ الشفوي أيضا عرض مشكلة الفهم..)[24] ؛ لأن الكلمة المنطوقة **(تفسر نفسها إلى حد مذهل بطريقة التكلم [و]نبرة الصوت، [و]درجة السرعة...وكذا بالظروف التي تنطق فيها)**[25] والكلمة المكتوبة تفقد ما ييسر مقومات تأويلها.

الثالث: تعيين القصد ليس اكتشافا، بل هو إنشاء لقالب تفسيري تأويلي، لا ينفك عن مشاركة لمعنى حاضر. وإن بدا في شكل إعادة إنتاج[26](Reproduction)؛ فإنه غير منزه عن الوصف بالخاطئ[27]، وهو خاضع لمناهج الزمن الحاضر في بحث المعنى وتحديده.

الرابع: ينقل إيكو عن دريدا بأن**(النص..آلة تنتج سلسلة من الاحتمالات اللامتناهية)** [28]، ثم يوافقه في أن **(النص كون مفتوح)**[29]لا تقوى أي قراءة على الإلمام بكل نواحيه ومعناه الشامل[30]؛ فكل تأويل تسبقه وتعقبه تأويلات ولا بد أن يكون فيها اختلاف.

الخامس: رغم التوجه السياقي والتاريخي، يبقى التأويل نسبيا لا يحقق فهما يوازي القصد ويساويه. وهو الحاصل مع الدائرة التأويلية التي لا تستبعد أبدا اهتمامات المؤول؛ فالوضع التاريخي يساير القصد السابق في زمن الإنتاج الذي يستدعي فهما زمن التأويل، ولا ينفصلان عن اهتمام المؤول، كما يتعين عند غدامر(Gadamer) وهايدجر (M.Heidegger) وهو ما جعل ــ بحثا عن تأويل أكثر موضوعية ــ شلايرماخر (Scheleirmacher) ودلثي(Delthy) يعتمدان بناء السياق الأصلي للنص واستبعاد اهتمامات المؤول[31].

السادس: يقوم كل منجز نصي أو انفعال من جهة الناطق على نموذج تشفير (model d'encodage) في مقابل نموذج تأويل(Model d'interprétation) من جهة المؤول[32] ويكون المعنى بين النموذجين وسيطا[33] ليتحقّق بين القصد والفهم شكل من التوافق، وهو ما لا يُجزَم بتعيينه.

تسببت هذه المشاكل في ضمور نسبي للتوجه السياقي في التأويل، وطفا إلى السطح التوجه النصي القائم على معنى النطق، وهي المسألة الثانية. إن(**النص أو الخطاب كبديل عن الإنسان أو التمثل أو المدلول لا يحيل إلى شيء آخر سوى إلى ذاته محققا بذلك((مرجعيته الذاتية)) ويحيل دوما إلى نفسه في سيرورة لا نهائية)**[34] ليكتسب من وجوده الذاتي التأويلات لممكنة وغير المحدودة؛ إذ(**يستمد إشعاعه من مادته، و من بنيته الشكلية ومن الأجواء الرمزية التي تتحرك فيها علاماته، وليس له خارج هذا الإطار أي مرجعية تشده وتحدد وجهة دلالته)**[35]. وعليه؛ فإن معنى النطق يحوي معنى الناطق وزيادة، بل النص يصنع مقامه بذاته بعد أن (**يُفصَل عن كل العوامل المحتملة، ويفهم في فكريته الكاملة، التي فيها وحدها يمتلك فعاليته)**[36].

لا يمكن التغاضي عن القصد نطقا وناطقا فتُعتمَد قصدية النص أساسا للنشاط التأويلي؛ لأن اعتماد الوضع التاريخي أو النفسي قالبا عاما يندرج ضمنه القصد الأصلي يكون في أغلب الأحيان شكا، أو معرفة لا تتعدى النسبية التي تتيح إمكانية ما، يُعتقَد أنها أساس الانفعال الأصلي، وهو –وإن كان حقيقة ثابتة– لا يعدو أن يكون احتمالا ممكنا، لغياب الدليل القوي الذي ينتفي معه الشك، وتحصل معه المعرفة المطلقة، فهو تعيين من

صاحب النص أو تعيين ممن شهد المقام، ولا يخلو الأمر من ريب. إن الحادثة ــ مهما كانت طبيعتها ــ تفقد وقعها في علاقتها مع الخطاب زمن التلفظ، وتعيينها لا يعني بالضرورة أن يحقق ما حققته مع المخاطِب والمخاطَب في زمنها الأصلي رغم المشابهة، فقد أصبحت حدثا تاريخيا يتردد مشابهة لا حقيقة عينية، فيفقد الخطاب توازن القصد والفهم وينتفي التساوي بينهما ليصير القصد أضيق من الفهم، ويتعذر مع ذلك اعتماد القصد الأصلي لتعذر إقامته كما قام بنفسه زمن الخطاب الأصلي. إن محاولة إقامة القصد الأصلي هي مقاربة في حد ذاتها لا تسلم بحال من الخطأ. بل إنها- إن نجحت ــ غشاء يراد به احتواء معنى معيّن سلفا يتم صرف الخطاب إليه بربطه بقصد ما. ويلزم من هذا الوضع أن يكون المعنى في المقام لا في النص، وما النص حينئذ إلا شاهد على وضع معنوي ما. وهو ما لا يستقيم في واقع النص؛ إذ هو قادر على أن يعيّن مقاما له يُفعّل حركة معاكسة بوصفه إمكانية من جملة الإمكانيات المتاحة. وأحسب أن مدار التأويل هو الخطاب دون غيره، فيه كل ما يحتاجه المؤول، ومنه يستمد المعنى ومنه يستمد المقام، فإذا ربطه بحادثة خارج نصه أغلب الظن فيها أنها علة الانفعال الأصلي، استأنس التأويل إلى رافد من روافد الإقناع التأويلي خاصة إذا حقق مبدأ الاتساق الذي يضفي عليه طابع القبول عند المؤول وعند غيره من المتلقين. وإنما يكون ذلك ممكنا لأن الخطاب يتحول بفعل وجوده المادي مخاطبا جديدا. ينمي رسالته الخاصة ــ وإن تشعبت ــ إلى المؤول بوصفه مخاطَبا. وهو بذلك يقول ما فيه محتويا قصد قائله داخل قصده؛ فالعلامة **(في غياب مؤلفها و...مرجعها لا يعني بالضرورة أنها محرومة كليا من مدلول مباشر)**[37] في ظل استقلال الخطاب بوجود عالم جديد[38]. يقوم هذا التوجه على اللاتحديد (Indétermination) متجاوزا **(قيود الزمان والكلمة المكتوبة وإعطاء الناس من كل العصور والخلفيات فرصة دخول عوامل أخرى)**[39]. إن اللاتحديد خاصية مميزة للنص الأدبي دون غيره من النصوص والخطابات الأخرى، تصنعه فجوات يمكن أن تملأ. وعليه ارتبط التأويل بثلاثة عناصر أساسية: المؤلف والخطاب والمؤول. مع الأول، لا يساوي النص إلا معنى يعيّنه هو بنفسه لا ينبغي للمؤول أن يفهم غيره ولا للنص أن يقول سواه. ومع الثاني[الخطاب]يتعلق التأويل ببنيته داخل جملة العلاقات التي تكوّنه وتصرفه

إلى معنى ما. وتؤدي موضوعية اللغة دور الموجّه إلى ذلك المعنى. ومع الثالث [المؤول] تتحوّل كل المفاهيم، إذ يتعيّن عنده المعنى بناءً على معطيات الخطاب واهتماماته (المؤول) [40]:**[اللاتحديد يوازي التجربة الشخصية للمؤول /ملء فجواته بإحالة الخطاب إلى عوامل واقعية/ لا موقف مماثل].**

يتعين انتفاء الموقف المماثل الذي يقوم عليه القصد الثاني بوصفه معادلا للقصد الأول، كما يمكن أن نجد له في الواقع ما يسد ثغراته، بفعل التجربة الذاتية للمؤول في مقابل ما يثيره فيه الخطاب من ستجابات[41]. وقد تمَّ التعامل مع الخطاب الأدبي[42] بما يتناسب والتوجه المنهجي للناقد؛ فرولاند بارت(R. Barthes) اكتفى النص وحده، وصار العمل الفني دالا على مدلول. وأما ميشال ريفاتير(M.Riffaterre)، فجمع بين النص وبين شيء من قصدية المؤلف بحكم توجهه الأسلوبي. لينحو امبيرتو إيكو (UmbertoEco)إلى قصد النص وقصد مؤلفه. وراح هانس بتر ياوس(H.P.Jaus) إلى استقصاء آفاق القراءة الممزوجة بحضور تاريخي مع مقصدية المؤلف. وتتعيّن القراءة عند فولفانغ إيزر(W.Iser) بإنشاء نص بديل عن النص الأصلي والقارئ معا. فاكتفى بعضهم بالنص وزاوجه بعضهم بغيره لإمكانية أن يكون الزائد على النص مساعدا على جودة القراءة ودقّتها. ويمكن أن يتعامل المؤول مع الخطاب بوصفه مزيجا من الوعي واللاوعي، وما تثيره اللغة في المؤول، فيعمل كل معارفه واهتماماته قصد تحصيل فهم يتناسب مع طبيعة الخطاب الأدبي. وهو الوسيط الثاني.

2-اهتمامات المؤول ولاوعي المبدع:

ليس للكاتب (**رسالة واضحة يريد تبليغها للقراء، وهذا ما يتركهم حيارى تجاه تفسير أعماله، ويورطهم في اختيار ما يرونه مناسبا من دلالات يقترحونها بأنفسهم لبلوغ ما قد يسمونه فهما لأعماله)**[43]. وذلك (**لأنه لو كان قادرا على معرفة إحساسه تمام المعرفة لما تجشم عناء الكتابة الشعرية)**[44]. إن اعتماد ضبابية الرسالة عند المبدع قائم على تأثير اللاوعي في الانفعال الشعري، حتى يصل الأمر إلى عدم معرفة مصابه، فتكون الكتابة محاولة منه لوصف الحال وإبراز المشاعر غير أن الحاصل أنه يعجز عن أداء يحيط بإحساسه، فيعيّنه في ذاته ولغته الشعرية، رغم تعدد الانفعال ووحدة الموضوع.

ويلزم من هذا الكلام أن يتضافر وعي المبدع ولا وعيه في كل محاولاته قصد تعيين حال يعجز المبدع نفسه عن تشخيصها رغم أنه أمر مخصوص به؛ إذ هو تكرار مع تغيير القوالب والأساليب، يحمل نفس الهوية الدلالية[45]. وإن كانت تنحو إلى الإيهام، لأنها تحرم المؤول الجزم بصحتها، وتفرض عليه التأويل على أساس أغلب الظن. ويكمن الوعي (conscience) في تركيب عناصر الموضوع والاستفادة من الذكريات والرصيد اللغوي[46]، وهو ما يتطلب وجود خطاطة مسبقة يتفاعل وفقها المبدع في انفعالاته المتكررة دون أن يحس بالرضى ولا بالاقتناع من أنه أدرك ما يريد وعبّر عنه التعبير المناسب. إنه الإحساس بالفقدان أو النقص (manque) الذي يلازم الذات **(ويحثها على أن تظل دائمة البحث عن الأنا المفتقدة)**[47]، ولذلك **(يتخذ من الفن مسلك العلاج الواقعي الذي يتيح للفرد التحرر من قبضة العالم الخارجي)**[48]. ويكمن الوعي في الرموز والصور التي تعطي معنى خفيا، لتحقّق الرغبات المكبوتة إشباعها اللغوي الخاص[49] بما يحوّل الانفعال الشعري من موقع معرفة إلى مادة لأجل المعرفة[50]. يؤكد حبيب مونسي وحميد لحميداني ــ اعتمادا على جاك لاكان وفرويد ــ أن الانفعال يقوم على أساس التعويض والأدوار والتعدد الذي يتحكم فيه اللاوعي بالدرجة الأولى[51]. ويتم الانتهاء إلى أن ذات الكاتب لم تعد **(ذاتا واضحة المعالم، بينة الحدود، ذات ميزات يستقيم معها تحديد التعبير، وضبط القصد)**[52]. بل هي ذات متعددة متقلبة المزاج، الأمر الذي أسّس للفهم الجديد القائم على الحقيقة النسبية والشك وانعدام المطلق واليقين، وهي الخصائص المرتبطة بالنص المتفرد بعيدا عن السياقات الصارفة والقوالب الجاهزة لمعان معينة سلفا. وعلى هذا الأساس تم التحوّل من الوعي والنظام والاعتدال إلى اللاوعي والاضطراب وعدم التوازن في أشكال متعددة أهمها التداخل بما يتناسب والذات المنفعلة أو الذات المتشظية، مما غذّى إلى حد كبير تدخل اهتمامات المؤول وسيطا في التأويل.

يكرس محمد شوقي الزين فكرة استحواذ المؤول على الأهمية القصوى في مقابلته للنصوص، ليجعل من اهتماماته وجودا وعالما جديدا، فتصير علاقة المؤول بالأثر هي علاقة بالحقيقة[53]؛ فقد **(طور غدامر نضال هايديجر في سبيل إثبات أن الوضع التاريخي والزمني للمفسر لا يمكن استبعاده من علم التأويل)**[54]. بل إن **(فهم الماضي يستلزم**

وصل الآفاق بين النص بوصفه تجسيدا لتجارب الماضي واهتمامات مفسره وآرائه القبلية في الحاضر، ولا يستلزم كما اعتقد شلايرماخر ودلثي إعادة بناء السياق الأصلي للنص مع استبعاد اهتمامات مفسره وآرائه قدر المستطاع(55). يتدخل في التأويل ــ حسب أعلام المدرسة الألمانية ــ الماضي لإعادة بناء السياق الأصلي واهتمام مؤوله في زمانه الحاضر بتوافق نسبي بينهما، فإذا توازن الطرفان كان التأويل جامعا بين كل الوسائط الممكنة، وإذا ضمر أحدهما لصالح الآخر، كان التأويل على نحو ما تمَّ الحديث عنه في مسألة القصد أو لايقينيه النص(56)(Aporie). ودفعا للوضعين معا تتفاعل كل هذه الوسائط بنسب متقاربة ليكون التأويل متوازنا وذا حقيقة نسبية، بعيدة عن الإطلاق المفقود والعبثية الممقوتة.

يحول اهتمام المؤولِ المؤولَ نفسَه من الثبات والاستقرار إلى التجدد والاستمرار، ليكون الناتج النسبي علـــة في توالد النصـــوص والقراءات بفعل الكشوفات المتأخرة للقراءات الصحيحة واستدراكاتها على القراءات الخاطئة، وبفعل شخصية المؤول وعصره وانتمائه الإيديولوجي، فيأتي تأويله لأي أثر أو بعض الأثر داخل نظام هو نظام المؤول القائم عليه(57). وقد تعيّن سابقا، وقوع التأويل بين قصد صاحب النص وقصد النص (معنى الناطق ومعنى النطق)، مما جعل البحث عن الدلالة يتحوّل إلى كيفية أداء الدلالة وفي ذلك وجهان؛ **أولهما:** أن الفهم واقع بالضرورة ولم يعد بحثا ذا قيمة فتحوّل عنه المؤول إلى كيفية أدائه بوصفه –الأداء- نمطا من التشكيل الخلفي للانفعال، فيصبح ما لا يقال أولى بالكشف مما قيل، وللمؤول السبق في هذا التحديد الذي قد يعلو شأنه حتى على الأثر الموصوف. **والثاني:** أن الفهم متفلت، فيكون التحوّل شكلا من الهروب إلى ما يستطاع في مقابل ما لا يستطاع، وهو المعنى المقصود أصلا. ولذلك نفهم بشيء من المعقولية تحوّل الوجود من كيفية فهمه (comment comprendre l’être)، إلى كيف تفهم فهو الوجود(58) (comment comprendre c’est l’être).

يتضح من الوضع قيام الأثر الأدبي بين تأويل يتجه إلى الأعلى واصفا ما يكون عليه الأثر نفسه، وتأويل يتجه إلى الأسفل يتعمق في البحث عن المعنى وجملة الدلالات الممكنة اعتمادا على دلائلية العلاقات المكونة لذات الأثر. وبهما معا يتحقق في الوجود

الفعلي عالم ممكن له امتداد أفقي وآخر عمودي في كل محاولة تأويلية، ليتشكل العالم الممكن بديلا عن النص/الخطاب، فيتضافر فيه تعدد القصديات وتضارب الاهتمامات. إن قيام التأويل على اهتمامات المؤول وعلى لاوعي المبدع- بكونه لا يستطيع تحديد مصابه- يشكل عملا تنتفي فيه قصدية المبدع مطلقا، وفي أحسن الأحوال تكون قائمة على قصد غير مقصود أي جملة ما تكرر من انفعال يجعله مقصودا برمته من غير تحديد فيأتي المراد خفيا يتشكّل في لغة الخطاب ويتولاه المؤول بالكشف والإظهار ولا يكون من وعي المبدع إلا الوسيط اللغوي المتكرر، والحقيقة ــ وإن كانت نسبية ويعتريها كثير من الشك ــ كامنة في لاوعي المبدع. ويصرف الانتماء الفكري للمؤول التأويل داخل نظام خاص يشترك فيه مع غيره ممن يماثلونه ويوالونه، فيعبّر ـــالتأويل ــ عن قضاياهم واهتماماتهم في بعضه، وقد قام سلفا على اهتمام المؤول ولاوعي المبدع، فيكون التأويل مشتملا على نحو تلك العناصر التي لا يمثل الخطاب الأصلي منها إلا جزءًا بسيطا هو ما امتزج بين الرصيد اللغوي ولاوعي المبدع والباقي من خارج النص أي من المؤول، فلا يسلم التأويل بهذه النمطية من إصابة ما لا يريده النص، فيأتي مصيبا لبعض المراد منه ومصيبا لفكر مؤوله وانتمائه الإيديولوجي، فيكون عرضة للتحوير الكلي أو الجزئي، أو تتداخل فيه المقاصد والنوايا فينصرف إلى غير ما أريد بكلية النص أصالة، ويشترك معه في بعضه تبعا. وعليه؛ يقع التأويل نسبيا تتجاذبه عناصر متعارضة، يتداخل بعضها في بعض انتخابا، ويترك أكثرها تهميشا. ويكون الحاصل:

[قصدية النص(قصدية المبدع+وعي المبدع+لاوعيه)+اهتمامات المؤول=التأويل]

يتعين من هذه المتساوية أن يكون طرفها الأول مثيرا بوصفه سلوكا مزدوج المنشأ، وطرفها الثاني استجابة، فتكون الاستجابة تأويلا[(59)]. وتتضاءل الاهتمامات من حيث الأهمية أمام قصدية النص بوصفها محدودة بعناصر من النص تتشابك فيما بينها لتؤدي في طرف المتساوية الأول دور المثير والاستجابة، فلا يكون لها وجود مستقل خارج حدود النص، وتخضع العملية في حقيقتها إلى سلوك مزدوج:

[لاوعي+قصدية النص(مثير)+اهتمامات المؤول(استجابة)](مثير)= التأويل (استجابة)

فالعملية مركبة في الحقيقة؛ إذ بين القصد والاهتمامات شيء من المثير وبين الاهتمامات والتأويل شيء من الاستجابة. لقد صار الأمر إلى ثنائية جديدة هي النص/ التأويل، بوصف الأول محركا والثاني إعادة إنتاج محتملة للأول، بفعل التفاعل بينهما بوساطة المؤول.

3- النص والتأويل:

النص عند امبيرتو إيكو**(كون مفتوح)**(60) ولغته تعكس لا تلاؤم الفكر، ويمثل عند دريدا (Derrida) **(آلة تنتج سلسلة من الإحالات اللامتناهية)**(61) بما أنَّ حقيقته **(تقع داخل خيال**[المؤول]**)**(62)، بمحو الأفق المحدود فيه ويتعدى ما عناه المؤلف إلى ما يعنيه هو ذاته(63) من خلال **(نسيج مركب من إشارات وتعبيرات ودلالات متداخلة تستدعي التفكيك والعزل لفحص بنيتها)**(64). ينفتح النص مشيرا ومحيلا لينتج معاني لا متناهية هي أساس النشاط التأويلي والاستجابة الجمالية كما يؤكدها إيزر(65) فنصبح **(نحن صناع المعاني التي نفهمها)**(66). ويحصل المعنى فهما يجتمع عليه المؤول والنص مع مراعاة الوسائط السابقة بنوع من الخبرة الحدسية(67) (Experience intuitive)، كشفا لهيكلة المعنى، ثم اهتماما بكيفية ظهوره، بالوصف وتحديد البناء(68)، وهذا نموذج تأويلي فيه استفزاز وكشف وتمنع وإخفاء وإظهار طلبا لدرجة من الفهم تخول معالجة المعنى، بـــ**(الاكتشاف والانتخاب وإعادة التشكيل ثم التركيب كخطوة نهائية)**(69)، حتى يصل حالة النضوب، فيتوقف عن العطاء باحتراق مادته(70)، فلا يوجد عندئذ**(معنى حقيقي في النص)**(71)، **وهو(يعني أي شيء تؤول أنه يعنيه)**(72)، فيثبت معنى مركزيا ويمازجه بأخرى ثانوية يكتشفها المؤول أو يبديها النص بالتدريج. يقوم التأويل بمهمة تحويل الكتابة إلى كلام ومعنى، مثلما تمَّ تحويل الكلام والمعنى إلى كتابة في مرحلة أولى(73) بملء الفجوات بين المشاهد المخططة إبرازا للمعنى وترميما للصلات غير الواضحة في النص(74)، **(فيتداخل حق القارئ بحق النص في نزاع يولد حركية التأويل برمتها)**(75). ليكون**(التأويل حالة خاصة من حالات الفهم)**(76) على مبدأ المثير والاستجابة، إمساكا بمعنى النص ككل، ثم استيعابا لنمط معقد من الفهم(77).

إن **النشاط التأويلي** لا يعني القراءة الواحدة بالضرورة، بل هو تكامل مجموعة قراءات تتضافر فيما بينها لتحصّل معانيَ تزداد عمقا وتتجه نحو تعيين مستويات مختلفة من الفهم، دون أن تستقر عند مستوى. وكل فهم تأويل يتجه من القارئ إلى المقروء يخترقه ويصل نواته التي تؤسس منطقه وتحكم نسقه ليصير التأويل خطاب المؤول الذي يفسر خطاب المبدع ويعطيه بعده المعنوي في تفاعل أهلية المؤول وأهلية النص، دون الجزم بصحته، ولا بقواعدها، فهو المحدود هرمسيا وغير المحدود غنوصيا، المحكوم على الدوام بالشك والنسبية، والقائم على الانسجام والاتساق مكونا عالمه الدلالي الخاص، ليكون مقنعا عند المؤول ومتلقيه، بما(**يستدعي مبدأ التناهي**(finitude)**في فهم الحقيقة)**[78]، التي لا تخلو من وهم(Simulacre) لقدرة الألفاظ على الإشارة والإيحاء، فهي تصور لحظوي ممكن كما يرى إيزر ويوافقه محمد شوقي الزين معلقا على التفكيكيين.

الهوامش:

1- ينظر: بول ريكور:نظرية التأويل،الخطاب وفائض المعنى،تر:سعيد الغانمي،المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان/ الدارالبيضاء، المغرب، ط1، 2003، ص26.

2- ينظرالسابق،ص 29.وهو يستعمل لفظ سياق(contexte) بدل المقام. وينظر: ك.م. نيوتن (Newton): نظرية الأدب في القرن العشرين[1]، تر:د/عيسى علي العاكوب، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية،ج. م. ع،ط1، 1996، ص 186.

3- نفسه،ص.30.

4- ينظر: حبيب مونسي: فلسفة القراءة وإشكاليات المعنى،دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، 2000 - 2001، ص68.

5- ينظر: السابق، ص300.

6- ينظر: ك.م.نيوتن: نظرية الأدب في القرن العشرين[1]،ص.195

7- ينظر: السابق، ص.111

8- ينظر بول ريكور: نظرية التأويل،ص.37

9- السابق، ص40.

10- نفسه،ص.45

11-نفسه،ص.53

12- حميد لحميداني: تحولات الخطاب النقدي العربي المعاصر،قسم اللغة العربية- كلية الآداب- جامعة اليرموك،مؤتمر النقد الحادي عشر،25-2006/07/27،عالم الكتب الحديث،إربد،الأردن،2006، ص .279

13- امبيرتو إيكو: التأويل بين السيميائيات والتفكيكية،تر:سعيد بنكراد،المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان /الدارالبيضاء،المغرب، ط1، 2000، ص46.

14- السابق، ص.79

15- نفسه، ص92

16- ك.م.نيوتن: نظرية الأدب في القرن العشرين[1]،ص245. في هذا الكلام تجانس مع كلام إيش وفوكيما:(وهي تأويلات ذاتية).ينظر: نظرية الأدب في القرن العشرين[2]،تر:محمد العمري، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 1996،ص.30

17- ك.م.نيوتن: نظرية الأدب في القرن العشرين[1]،ص201

18- امبيرتو إيكو: التأويل بين السيميائيات والتفكيكية،ص.23

19- ك.م نيوتن:السابق [1]،ص107.

20- نفسه [1]،ص108.

21-حبيب مونسي: فلسفة القراءة، ص284.

22-امبيرتو إيكو: التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ص87. وينظر: محمد شوقي الزين: تأويلات وتفكيكات، فصول في الفكر الغربي المعاصر، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان/ الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2002، ص.37

23- ك.م.نيوتن: نظرية الأدب في القرن العشرين[1]، ص.107

24- السابق[1]، ص 110.

25- نفسه[1]، ص 111.

26- نفسه[1]، ص 110.

27- نفسه[1]، ص 195، وينظر امبيرتو إيكو: التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ص42 -43 .

28- امبيرتو إيكو: التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ص124

29- السابق، ص42.

30- ينظر: محمد شوقي الزين: تأويلات وتفكيكات، ص191.

31- ك.م.نيوتن: نظرية الأدب في القرن العشرين[1]، ص107-108 .

32- C.K.ORECCHIONI, l'énonciation, de la subjectivité dans le langage, Librairie Armand Colin, Paris, Fance, 1980, p: 19.

33- ك.م.نيوتن: نظرية الأدب في القرن العشرين[1]، ص.109

34- محمد شوقي الزين: تأويلات وتفكيكات، ص182.

35- حبيب مونسي: فلسفة القراءة، ص 315.

36- ك.م.نيوتن: نظرية الأدب في القرن العشرين[1]، ص.111

37- امبيرتو إيكو: التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ص124

38- حبيب مونسي: فلسفة القراءة، ص200،

39- ك.م.نيوتن: نظرية الأدب في القرن العشرين[1]، ص 242.

40- ينظر: حميد لحميداني: القراءة وتوليد الدلالة، تغيير عاداتنا في قراءة النص الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2003، ص80.

41- ك.م.نيوتن: نظرية الأدب في القرن العشرين[1]، ص.239

42- ينظر: القراءة وتوليد الدلالة، ص81.

43- حميد لحميداني: تحولات الخطاب النقدي العربي المعاصر، ص.277

44- السابق، ص276.

45- بول ريكور: نظرية التأويل، ص 35.

46- حميد لحميداني: تحولات الخطاب النقدي العربي المعاصر، ص.272

47- السابق، ص 273. معتمدا على جاك لاكان J.Lacan

48- حبيب مونسي: فلسفة القراءة، ص 272.

49- السابق، ص 273.

50- حميد لحميداني: تحولات الخطاب النقدي العربي المعاصر، ص 272.

51- ينظر: تحولات الخطاب النقدي العربي المعاصر، ص273

52- حبيب مونسي: فلسفة القراءة، ص 288.

53- تأويلات وتفكيكات، ص 37-38. معلقا على رؤية غدامر وهايدجر في مقابل شلايرماخر وبيتي.

54- ك.م.نيوتن: نظرية الأدب في القرن العشرين[1]، ص 107.

55- السابق[1]، ص108.

56- محمد شوقي الزين: تأويلات وتفكيكات، ص169.

57- حبيب مونسي: فلسفة القراءة، ص213.

58- محمد شوقي الزين: تأويلات وتفكيكات، ص54.

59- ينظر: بول ريكور: نظرية التأويل، ص 46. فكرة التصنيف مستوحاة من كلامه على الفعل التأثيري.

60- التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ص 42.

61- السابق، ص 124.

62- ك.م.نيوتن: نظرية الأدب في القرن العشرين[1]، ص 242. يستعمل صاحب النص لفظ القارئ بدل لفظ المؤول.

63- بول ريكور: نظرية التأويل، ص61.

64- محمد شوقي الزين: تأويلات وتفكيكات، ص190.

65- ك.م.نيوتن: نظرية الأدب في القرن العشرين[1]، ص241.

66- السابق[1]، ص111

67- حبيب مونسي: فلسفة القراءة، ص145

68- السابق، ص172.

69- نفسه، ص298.

70- نفسه، ص345. والمعنى عند إيكو مطبقا على النص مبدأ الديناميكا الحرارية (Entropie)

71- نفسه، ص325.

72- ك.م.نيوتن: نظرية الأدب في القرن العشرين[1]، ص111.

73- ك.م.نيوتن: نظرية الأدب في القرن العشرين[1] ، ص111.

74- ك.م.نيوتن: نظرية الأدب في القرن العشرين[1]، ص241.

75- بول ريكور: نظرية التأويل، ص64.

76- السابق، ص120.

77- نفسه، ص121.

78- محمد شوقي الزين: تأويلات وتفكيكات، ص 43.